

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحياة الاجتماعية عند نجم الدين الرازي (١)

— للدكتور عبد الرحمن شاه ولي

إن موضوع دراستنا ليس شخصية نجم الدين الرازي فحسب ، بل اتنا نحاول جاهدين ابراز آرائه فيما يتعلق بابداع العالم و حدوثه ، وروحانيه الانسان ، و سلوكه في مجالات حياته المتنوعه ، و ما فيه سعاده ، او شقاؤه ، و ما يضر انسانيته وروحانيته و غير ذلك من طرق الاصلاح و تهذيب الاخلاق ، و علاج أمراض القلب ، و ما يترتب على ذلك من الثواب و العقاب و ألوان النعيم ، و العذاب في الحياة و بعد الممات و ما الى ذلك من درجات الازواج ، و تفاوت السعادة في الدنيا و الآخرة . نجد آراهم في هذه الموضوعات و ما يتعلق بها ، في كتابه مرصاد العباد الذي كتبه باللغة الفارسيه ، و قد حاولنا تعريب بعض الاقتباسات منه . و رغم أن نجم الرازي يبحث في كتابه عن المشاكل الفلسفيه ، و الاجتماعيه و السياسيه ، و الاقتصاديه ، و عما ينبغي للتجار و القضاة و الحكام ، الا أن الصبغه التي تصطبغ بها آراؤه انما هي العناية بتهذيب الاخلاق ، و اصلاح الباطن لذلك سنأتي بمقدمه في تعريف الخلق ، ثم نذكر شيئا من حوادث

عصره ، لئرى آثارها فى شخصيته ، ثم نذكر آراءه فى تلك الموضوعات ومايلائمها مع شىء من المقارنه و النقد، و بالله التوفيق .

((تعريف الخلق))

و التعريف المختار للخلق فى نظر ابن مسكويه ، و أبى حامد الغزالى هو : أنه حال النفس تدعوها الى الافعال يسر و بلا تكلف ، فان كانت تلك الحاله تصدر عنها أفعال الخير يسر و سهوله تسمى خلقا حسنا ، و ان كانت مصدرا لافعال الشر تسمى خلقا سيئا .^١ و من هنا قد توضح لنا أن تميز الخلق الحسن من الخلق السيئ مبنى على تصور الخير و الشر و معرفتهما . و فى ذلك يقول ابن مسكويه (الخيرات هى الامور التى تحصل للانسان بارادته و سعيه من الامور التى لها وجد الانسان ، و من أجلها خلق ، و الشرور هى الامور التى تعوقه عن هذه الخيرات بارادته و سعيه او كسله ، و انصرافه .)^٢ و اذا كان ذلك كذلك فعليتنا الرجوع الى القرآن الكريم لتعلم غايه خلق الانسان و وجوده ، قال تعالى : (وما خلقت الجن و الانس الا ليعبدون)^٣ اى يعرفون ، هكذا فسر كثير من الصوفيه : و الفلاسـه هذه الايه الكريمه .

يقول ابن سينا ما نصه : (و الصلوة هى التعبد للعلـه الاولى ، و المعبود الاعظم الاعلى و التعبد عرفان واجب الوجود ، فعلى هذا لا يحتاج تاويل

(١) راجع تهذيب الاخلاق لابن مسكويه ص ٣١ و احياء علوم الدين ج ٣ للامام الغزالى .

(٢) تهذيب الاخلاق لابي على احمد بن محمد مسكويه (٩٣٢ - ١٠٣٠ م) .

(٣) سورة الزاريات .

(٤) راجع مرصاد العباد لنجم الدين الرازى ص ٦٢ .

قوله تعالى (ليعبدون) 'يعرفون' ، لان العبادة هي المعرفة ، اى عرفان واجب الوجود ، و علمه ، بالسر الصافي ، و القلب النقي ، و النفس الفارغة ، فاذن حقيقة الصلوة معرفة علم الله تعالى بوحدانيته ، و وجوب وجوده ، و تنزيه ذاته و تقديس صفاته ° اتضح لنا بجلاء من هذا النص : أن العبادة التى هى غاية خلق الانسان ، انما هى العرفان فى نظر ابن سينا ، و معرفة واجب الوجود وصفاته ، و لكن يشترط لذلك فى نظره صفاء السر و نقاء القلب ، و فراغة النفس ، و هذا ما صرح به الغزالى فى قوله :

(ان حقيقة الكفر و الايمان وحدهما : و الحق ، و الضلال ، و سرهما لا يتجلى للقلوب المدنسة بطلب الجاه و المال ، و جبهما ، بل انما يتكشف ذلك لقلوب طهرت عن اوجار الدنيا اولا ثم صقلت بالرياضة الكسلة ثانيا ، ثم نورت بالذكر الصافي ثالثا ، ثم عزيت بالفكر الصائب رابعا ، ثم زيتت بملازمة حدود الشرع خاسما ، حتى فاض عليها النور من مشكوة النبوة و صارت كأنها مرآة مجلوة ، و صار مصباح الايمان فى زجاجه القلب مشرق الانوار ، يكاد زيتها يضى و لولم تمسه نار . و أنى تتجلى اسرار الملكوت لقوم الهيم هواهم ، و معبودهم سلاطينهم . و قبلتهم دراهمهم و دنائيرهم ، و شريعتهم رعوتهم ، و ارادتهم جاههم ، و عبادتهم خدنتهم اغنياءهم و ذكركم و سواسهم ، و فكرهم استتباط الحيل لما تقتضيه حشمتهم ؟ فهؤلاء من اين تميز لهم ظلمة الكفر من ضياء الايمان ؟ أبالهام الهوى ، و لم يفرغوا القلوب عن كدورات لقبولها ؟ أم بكمال علمى و انما بضاعتهم فى العلم ازاله التجاسة

(٥) رسالة ابن سينا فى سبب الصلوة فى مجموعة رسائله المطبوعة فى لندن ص ٣٤ - ٣٥ .

(٦) وساخة الدنيا .

بطلاء الزعفران ، و أمثالها ؟ هيهات ، هذا المطلب انفس و اعز من أن يدرك
بالمنى او ينال بالهويتنا ^٧.

اتضح لنا من هذا النص ، أن الغزالي يؤكد بما أشار اليه ابن سينا من
اشتراط التزكية للحصول على المعرفة الحقة التي هي معنى العبادة إلا أن
طريق التزكية قد لا يكون عندهما واحد و يمكن أن يكون هذا من تأثرهما
بأفلاطون حيث إستزجت آراؤه في الخلق والمعرفة ، اما سقراط فانه يعتبر العلم
فضيلة ، و الجهل رذيلة .

و على أى فان المقصود والغاية من خلق الانسان هي عبادة التي
هي العرفان ، فاذن الخير هو ما يؤديه الى العرفان الحق و كماله ، و الشرما
يعوقه عن ذلك و من هنا يقول ابن مسكويه : ” و الانسان من بين سائر
الموجودات له فعله الخاص به ، لا يشاركه فيه غيره ، و هو ما صدر عن قوته
المميزة و الروية ، فكل من كان تميزه اصح ، و رويته اصدق ، و اختياره
افضل كان اكمل في انسانيته ^٨ و كذلك الحال في كل موجود ، كماله
الخاص به في فعله الذي لا يشاركه فيه غيره ، فاذن كمال الانسان في التميز
و العرفان الذي هو العبادة المقصودة من خلقه ، و كماله و سعادته به .
و لذلك يرى ابن سينا ان الانسان اذا انتقصت قواه المذمومة ، و تجردت نفسه
عن الفكر الردي ، و العشق الدني ، و زين ذاته بحيلة العقل ، و قلائد

(٧) حسم التفرقة بين الكفر و الزندقه في مجموعة رسائل الغزالي المطبوعة في بوباي ص ٢٠ .

(٨) تهذيب الاخلاق ص ٢١ ط بيروت .

العلم ، و تخلق بالاخلاق المحموده ، يبقى لطيفا منزها باقيا ، شابا سعيدا في آخرته ،^٩

فاختيار الانسان ما يكمل عرفانه الحق ، و صدور ذلك عنه يسير و سهوله بلا تكلف يسمى بالخلق الحسن ، و به وحده يتفاضل بنوع الانسان فيما بينهم . و من هنا قال ابن مسكويه (يجب ان تعلم أن اسم الانسان و ان كان يقع على افضلهم و على أدونهم ، فان بين هذين الطرفين اكثر مما بين كل متضادين ، و الشاعر الذي قال :

ولم أر امثال الرجال تفاوتا . الى المجد حتى عد الفا بواحد
و ان كان عنده ، أنه قد بالغ ، فانه قصر . و الخبر المروي عن النبي صلى الله عليه و سلم (اني وزنت بامتي فرجحت بهم) يؤيد ذلك^{١٠} ثم أن للخلق تعريفات أخرى الا أن الغزالي يعتبرها خصائص الخلق لا تعريفاته^{١١} لذلك اعتبر ذكرها طولا بلا طائل ، و من أهم خصائص الخلق الاسلامي ، هو سببه المساوات ليس فيه طبقه ارسطو ، كما أن الخلق الاسلامي يحافظ على التوازن الدقيق الامين العادل بين مقضيات القوى البهيمة ، و الروحية في الانسان حيث أن الاسلام لا يرى الكبت و قمع بعض القوى مثل ما يرى بعض الفلاسفة بل يعطى لكل ذي حق حقه و لكل قوة ما تقتضيه و لكن في حدود تهذيب انساني ، فالانسان مجموعه القوى المتضاربة ، او قيه قوى تتصارع و تتضارب

(٩) رسالة ابن سينا في سمية الصلاة ص ٣٤ .

(١٠) تهذيب الاخلاق ص ٣٨ .

(١١) راجع احياء علوم الدين للغزالي ج ٣ و عوارف المعارف للمسهرودي .

طول حياته، للحصول على مقتضياتها، قوته الروحية، تقتضى ما تعارضه طبيعته البهيمة، و هي بدورها تأبى مشتبهات الطبع الروحي فلو لا مراعات التوازن العادل بين مقتضيات الطبيعتين المتعارضتين لمات الانسان جوعا او جائعا متعطشا الى مشتبهاته، مثل ما يسمى فى بعض الكتب السماوية بالاسد النملى الذى، له طبع الاسد و به يشتهى اللحوم. و لكن طبعه النملى يأبى ذلك، و يقتضى تناول الحبوب، الا أن طبيعته الاسديه تعارض ذلك و من هنا يموت جوعا نتيجة هذا الصراع الغير المتزن^{١٢}.

فالشريعة الاسلاميه تحافظ على التوازن بين مقتضيات القوى المتضاربه فى الانسان، و من هنا نصل الى أن الخلق الاسلاسى، نتيجة تنفيذ القوانين الشرعيه على مستوى الفرد و المجتمع، و من ذلك قال سيدى رسول الله صلى الله عليه وسلم: انما بعثت لاتمم مكارم الاخلاق، و من هنا خاطبه ربه بقوله: انك لعلى خلق عظيم. و من ذلك نستطيع الوصول الى أن السعادة الانسانيه الابديه تقدر بمقدار التخلق بالخلق الحسن الذى هو

(١٢) وقد رأينا العصور الوسطى تهتم بكتاب خاص، و تفرغ به، و هو كتاب "فيزيولوجوس" الذى يتحدث عن النملة و الاسد، و قد واد لهما حيوان أطلق عليه، اسم الاسد النملى. و قد مات هذا الحيوان بمجرد ولادته، و ذلك لانه عاجز عن اطعام نفسه، او غير قادر على ذلك فموتا يموت. و الدليل على صحة ذلك ما ورد فى الكتاب المقدس حيث ذكر: أن الاسد النملة يموت جوعا، و ذلك لانه من طبيعتين، فاذا دفعت طبيعة من الطبيعتين الى أكل اللحم رفضت الطبيعة الاخرى، أى طبيعة النمل التى تشتهى اكل الحبوب، و لكن النمل يريد أن يعيش على الحبوب، و هذا يعارض و طبيعة الاسد، لذلك فهو محروم من اللحم و الحبوب و من أجل ذلك يموت و هكذا اولئك الذين يريدون أن يخلصوا سيدين فى وقت واحد: الله، و الشيطان، اذ بينما يدعو الله الى الطهارة، يعرضهم الشيطان على ارتكاب الجريمة. فضل العرب على اوروبا، تاليف زيجريد هوتكه الالمانية ترجمة الدكتور فواد حسين على ص ٣٣٤ - ٣٣٥.

مدار سعادة الانسان و لذلك كان و لازال هدف الاديان السماوية الحقّة ، و غاية خلق الانسان و وجوده في كوكبنا هذا ليترقى في معارج الخلق الى المكانة السامية للانسانية .

و هناك من لا يستفهم اسم الاخلاق ، او علم الاخلاق ، الا أن اسم التصوف الاسلامي يستفهم الى أبعد الحدود ، حيث يعتبر بجهله التصوف الاسلامي عبارة عن السلبية ، و الكسل ، و الخمول . و التحجر ، و النصب ، و الدجل ، و ما الى ذلك من الصفات الذميمة التي يحاربها التصوف ، و لعمري ان هذا لاتهام الشئ ، بضده و تقيضه ، و ليس هذا غريبا بالنسبة الى من وصلوا الى درجة اسفل السافلين فعجزوا عن ادراك حقائق الاشياء كما هي بعد أن خسروا بصائرهم ، فانها لا تعنى الايبصار ، و لكن تعنى القلوب التي في الصدور ، من كان في هذه اعمى فهو في الآخرة اعمى و أضل سيلا ، .

ان التصوف و التخلق باخلاق الاسلام ، انما هو من مطالب أولى العزم و الهمم العاليه الرفيعة من المسلحين المؤمنين حقا ، و من الامنيات التي لا ينبغي لها غير الرؤس الشامخة بالعز و الهمم ، و لا يحصل فتح هذا الباب من كل عاجز فقير^{١٣} و ذلك لان التصوف و التخلق عمل ، و جهاد ، و ذوق ، و وجدان ، و علم ، و فلسفه ، له تاريخ عريق عراقة الانسان ، و ديانتته ، و حضارته . نعم ان بعض المنتسبين الى التصوف في كل حصر ، و خاصة في عصرنا الراهن ، لاشباع بهيمتهم باسم التصوف و الزهد مختبئين وراء ستار الخلق

(١٣) لاحظ مرصاد العباد ص ١٢٧ لتجم الدين الرازي .

و الدين ، هم فعلا يتصفون ، بهذه الاوصاف التي تعارض الخلق و الدين ، و لكن وجود الزيف لا يدل على عدم وجود الاصل النقي . بل انه يدل على وجود الاصل و نقاسته ، و جودته ايضا فليس الذهب المزيف دليل عدم وجود الذهب انقى ، بل يدل على أن الذهب معدن شريف لولاه لما زيف ، و هكذا النبوة ، و جميع المناصب الدينية .

فالمحققون النزهاء لا يعرفون الاشياء من المزيف و المتصنع : بل يحاولون أخذ الشيء من معينه ، و معدنه الاصلى . و على أى فان هذا البحث سيوضح لنا على الاقل نوعا خاصا من الفكر الاسلاميه - الاصيله - التي مصدرها القرآن و السنه - النبويه - ، كما سيوضح لنا ايضا مدى أصاله - هذا العلم في البيئه - الاسلاميه - ، و مدى جهود علمه الاسلام في هذا الميدان ، عمليا و نظريا . و سيعطينا ايضا أداة التميز بين الحق و الباطل و معرفتهما في هذا الصدد .

(عصره)

لا استطيع تحديد تاريخ ميلاد نجم الدين الرازى جزما ، الا أن الظن الغالب هو أنه قد ولد في أواخر القرن السادس الهجرى ، و عاش الى ما بعد منتصف القرن السابع الهجرى حتى توفى سنة ٦٥٤ هـ و قد كان الشيخ نجم الدين أبويكر عبد الله بن محمد بن محمد بن شاهاور الاسدى الرازى من سرىدى الشيخ سجد الدين البغدادى ، و هو بدوره كان سرىدى نجم الدين الكبرى ، نسبة الى السلسله - الكبرويه - . و كان من سكان همدان الا أنه غادر بلاده أيام فتنه - التتار ، فأقام في اربيل سنة ٦١٨ هـ غير أنه نم يستقر هناك كثيرا لانه كان يبحث عن بلد هادى بعيد عن القلاقل و الاضطرابات ليأوى اليه

فيقوم بالاعمال الفكرية . فوقع اختياره على آسيا الصغرى ، فقام هناك ، و في تلك الفترة الف كتابه ”مرصاد العباد“ ، باللغة الفارسية ، و قد تم تأليفه سنة ٦٧٠ هـ حسيما يذكر في مرصاد العباد . و له اربعة مؤلفات أخرى و هي :

(١) بحر الحقائق و المعاني . و هو في تفسير القرآن الكريم .

(٢) منارات السالكين الى حضرة الله .

(٣) مقامات الطائرين بالله .

(٤) رساله في العشق و العقل .

عاش نجم الدين الرازي بعض الوقت في آسيا الصغرى ، و التقى هناك بعض الشخصيات الممتازة الهامة مثل الشيخ صدر الدين القونوي . و العارف الشهير مولانا جلال الدين الرومي . ثم توفي في بغداد سنة ٦٥٤ هـ و دفن هناك خارج مدفن الشيخ السرى السقطي^{١٤} و الشيخ جنيد البغدادي^{١٥} . عاش الشيخ نجم الدين الرازي في عصر كان مليئا بالفتن و يموج بالفلاقل ، و رأى بعينه هجمات التتار على الدول الاسلاميه ، و تألم لوقوعها في مخالبتهم واحدة تلو أخرى . و ذاق مرارة سيطرة التتار على العالم الاسلامي ، و شاهد قتلهم و ابادتهم المسلمين حتى العجزة و الاطفال و النساء .

و تار و اهتز لتخريب التتار ، و احراقهم اروع البضائع ، و أثنم السلع ، و اشعال النار في اجمل الديار و المدن ، و المكتبات و المساجد و المعابد ،

١٤) الشيخ السرى السقطي : صوفي سني ، معلم جنيد ، و ينسب اليه أنه قال بأن أحرف القرآن مخلوقة ، و أن الحسين يفوقون في النعم تباع موسى و عيسى ، و يمد عليهم الصلوة و السلام . و قد لاه الامام ابن حنبل رض على تلك الاقوال . توفي في بغداد سنة ٨٧٠ م راجع المنجد في اللغة و الادب ، و العلوم تأليف لويس معلوف ص ٢٥٣ ط بيروت .

١٥) لاحظ مقدمة مرصاد العباد للإستاذ حسين الحسيني النعمة اللهم .

و تلاعبهم بالمقدسات و انتهاكهم الحرمات ، و ابحاثهم الاعراض . و اعتم بكل هذا و تأثر الى أبعد الحدود ، و هو يظهر هذا انجزن العميق سكرها في كتابه مرصاد العباد الذى الفه في تلك الفترة باللغة الفارسية ، و بحث الملوك و يحرضهم على مقاومة هؤلاء الهمجيين الذين ان ساروا في طريقهم دون عائق او مقاومة ، فانهم سيقضون على الحضارة ، الاسلامية نهائيا ، و يذكرهم بتعليمات الاسلام ، و يوجههم الى أن الجهاد من أفضل الاعمال في هذه الفترة ، و من مقتضيات هذه الظروف الفاسية التى قد تقضى على انسلطة الاسلامية اذا لم ينتبه المسلمون من غفلتهم . و يقول نجم الرازى في سبب تأليف كتابه مرصاد العباد ما معناه ، أن بعض مردييه ، و بعض الطلبة ، قد طلبوا منه أن يكتب كتابا مختصر العبارة كثير المعاني ، يجمع فيه المسائل و الافكار التى تتعلق بالمبدأ و المعاد و ما يتعلق ببداية السلوك و نهاية السير في الطريق الصوى ، يفيد المبتدئين و انصاف المثقفين الذين لديهم خبرة قليلة و يفيد ايضا العلماء الكاسلين الراضين . و يقول الرازى أنه كان يتجول حينذاك في بلاد العراق و خراسان و لم يستطع الاستقرار في مكان واحد ، و من ذلك لم يتح له فرصة القيام بتأليف ذلك الكتاب المطلوب منه تأليفه ، و ذلك لايتلائم بأنواع من الفتن المقلقة التى اضطرب لاجلها ، فاعادت الى ذاكرته قول النبى عليه الصاوة و السلام (الفتنه من ههنا و أشار الى المشرق)^{١٦} .

و يقول نجم الرازى أنه لم يستسلم لقضاه الله فم يرض بتلك الفتن و الهموم البسيطة بالنظر الى ما ابتلى به العالم الاسلامى من فتنه التار ، و لم

(١٦) رواه البخارى في كتاب الطلاق .

يصبر عليها ولم يشكر الله على نعمه الاسلام، رغم علمه بأن بعض الشر أهون من بعضه، و نتيجة لذلك الكفران بنعم الله عزوجل، و عدم تقديره احسانه و لطفه، قد ابتلى بما أصاب العالم الاسلامى من الدمار و الخراب حسب سنة الله فى الكون (و لئن كفرتم فان عذابى لشديد) ١٧ .

هذا هوتعليل النجم الرازى و محاولته تحليله لما أصابه من مصيبه و لما ابتلى به هو شخصيا . ثم يحاول تعليل ما أصاب المسلمين عامه من فتنه التتار و ظلمهم و طغيانهم فى العالم الاسلامى، و انهزام المسلمين منهم، و انتصار التتار عليهم و القاء الرعب فى قلوب المسلمين .

فيقول ما معناه . ان ظلم الطغاة و فسق الفسقه و فجور الفجرة ، قد تسبب فى المام هذه الكارثة التاريخيه بالدول الاسلاميه، و ذلك حسب سنة الله فى الكون التى بينها فى قوله . (و اذا أردنا أن نهلك قرية، أمرنا مترفيا ففسقوا فيها، فحق عليها القول فدمرناها تدميرا) ١٨ و حسب هذه السنه الالهيه فى العالم استولى جيش التتار على تلك البلاد سنة ٦١٧ هـ و قاموا بالقتل و الهدم و الدمار و الخراب و الاحراق، و يقول انه لا نظير لهذه التكبّه المفجعه فى التاريخ الانسانى، فى أى عصر من العصور السالفه، و فى أى بلد من بلدان النائية، و يعتبر الرازى هذه التكبّه مصداقا لقول رسول الله صلى الله عليه و سلم (لا تقوم الساعة حتى تقاتلوا الترك ،

(١٧) سورة ابراهيم .

(١٨) لاحظ مرصاد العباد - ط طهران .

و هم قوم صغار الاعين حمر الوجوه ، ذئف الانوف ، كأن وجوههم المجان^{١٩} .
 ويستبعد الرازي أن يحصل مثل هذه النكبة من قتل الانفس و دمار
 المدن و ذلك لان التار قاموا بالقتل و الهدم و التخريب من تركستان الى
 باب الشام و الروم . و يمكن للنظر تقدير هذه النكبة من أن التار قتلوا و
 اسروا من سكان المدينة التي هي مسقط رأس النجم الرازي أكثر من سبعائة
 الف نفر ، و يرى أن هذه الفتنة قد عمت المسلمين و العالم الاسلامي بحيث
 لا تستطيع العبارات ضبطها ، ولا يمكن للتعبيرات تصويرها ، و انها لا تحتاج
 الى الشرح و البيان لشهرتها^{٢٠} .

هذه احساسات نجم الرازي و مشاعره تجاه تلك الكوارث الاتارية و النكبات
 التي امت بالبلاد الاسلامية و هو يعللها تعليلا صوفيا يجعلها نتيجة الظلم و
 الفسوق و العصيان الذائع في العالم الاسلامي آنذاك . و من هنا لا بد لي
 من شرح تلك الكوارث و ظروفها الملازمة لها باختصار لتؤكد من صحة
 رأي نجم الرازي و تحليله و تعليله لهذه النكبة المفجعة .

عبور التار نهر جيحون

قامت التار سنة ٦١٦ بعبور نهر جيحون صعبة ملكهم جنكيز خان من
 البلاد التي كانوا يسكنون فيها و هي جبال طمغاج في ارض الصين ، و قد
 كانت لغتهم مخالفة للغة سائر التار ، و هم من اشجعهم ، و اصبرهم على

(١٩) روى البخاري و مسلم : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا تقوم الساعة حتى تقاتلوا قوما نعالهم
 الشعر ، و حتى تقاتلوا الترك صغار الاعين حمر الوجوه ، ذئف الانوف كان وجوههم المجان المطرقة .
 انظر كتاب الفتن من مشكوة المصابيح صفحة ٤٦٥ .

القتال ، و كان سبب دخولهم نهر جيحون ، أن جنكيز خان بعث تجاراله و معهم أسوال كثيرة الى بلاد خوارزم شاه ، فكتب اليه نائب تلك البلاد يذكر له ما معهم من كثرة الاموال ، فأرسل اليه أن يقتلهم ، و يأخذ أسوالهم ففعل ذلك ، و قد استكر مؤرخو الاسلام هذا الفعل على خوارزم شاه و اعتبروه فعلا رديئا ، فلما بلغ خبرهم جنكيز خان ارسل اليه مهديا ، فأشار البعض على خوارزم شاه بالمسيرة الى التتار فصار اليهم ، و هم في شغل شاغل بمقاتل كشيلى خان .

فقام خوارزم شاه بنهب أسوالهم و سبي ذراريهم و أطفالهم ، فأقبلوا اليه محروبين ، فاقتلوا معه اربعة أيام قتالا لم يسمع بمثله . هم كانوا يقاتلون عن حريمهم ، و المسلمون عن أنفسهم ، يعلمون أنهم ان تمكنوا منهم استأصلوهم ، فقتل من الفريقين خلق كبير ، حتى أن الخيول كانت تزلق في الدماء ، و كان عدد المقتولين من المسلمين نحو من عشرين الفا . و من التتار أضعاف ذلك . ثم تحاجز الفريقان موليا كل منهم الى بلاده ، و لجأ خوارزم شاه و أصحابه الى بخارى و سمرقند ، و قام بتحصينهما و ترك كثيرا من المقاتلين هناك . و رجع الى بلاده ليجهب الجيوش الكثيرة . فقصدت التتار بخارى و فيها عشرون الف مقاتل ، فحاصرها جنكيز خان ثلاثة أيام ، فطلب منه أهلها الامان ، فأسنهم و دخلها فاحسن السيرة فيهم مكررا و خديعة . و استنعت عليه القلعة فحاصرها و استعمل أهل البلد في طم خندقها ، و كانت التتار يأتون بالمنابر و الربعات قيطرحونها في الخندق يطمونه بها ، ففتحوها قسرا في عشرة أيام . فقتل من كان بها . ثم عاد جنكيز خان الى البلد فاصطفى أسوال تجارها ، و أحله لجيشه ، و قتل من أهلها خلفا لا يعلمها الا الله ، و قادوا بأسر الذرية

و النساء و ارتكاب الفواحش معهن بحضور أهلهن ، فقاتل بعض الناس دون أهله و حريمه حتى قتل ، كما أسر البعض فعذب بألوان من العذاب . و قد كثر البكاء و الضجيج في البلد من الاطفال و النساء و الرجال . و ولع انتشار النار في دور بخارى و مدارسها و مساجدها حتى احترقت . و صارت بلاقم خاوية على عروشها .^{٢١}

كانت هذه حالة العالم الاسلامي من ناحية الشرق ، أما من ناحية الغرب فكان ايضا عرضه لهجمات الافرنج ، و من ذلك أسر المعظم بتخريب سور بيت المقدس في سبتمبر عام ١٠٩٦ هـ و ذلك خوفا من استيلاء الافرنج عليه . لانهم ان تمكنوا من ذلك جعلوه وسيلة لاختذ الشام كله . و في نفس السنة استحوذت الافرنج مدينة دمياط ، و دخلوها بالأمان ، ثم غدروا بأهلها ، قتلوا رجالها ، و سبوا نساءها و أطفالها و فجروا بالنساء و عبثوا بالمقدسات)^{٢٢} .

و هكذا كان العالم الاسلامي في عصر نجم الدين الرازي عرضه لطمع الطامعين فيه شرقا و غربا ، و من ذلك ظل يحرض المسلمين على المقاومة و الجهاد في سبيل الله دفاعا عن بيضه الاسلام و مقدساته .

و في سنة ١١٧٧ هـ عم البلاء و عظم العزاء بجنكيز خان ، و من معه من التتار ، واستفحل اسرهم و اشتد افسادهم من أقصى بلاد الصين ، الى أن دخلوا بلاد العراق حتى انتهوا الى بلاد اربيل و أعمالها فملكوا في سنة واحدة سائر الممالك الا العراق و الجزيرة و الشام و مصر .

(٢١) البداية و النهاية لعماد الدين أبي الفداء اسماعيل بن عمر بن كثير المتوفى سنة ٤٨٤ هـ ٨٢ -

٨٣ ج ١٣ -

(٢٢) راجع نفس المصدر ص ٨٤ ج ١٣ -

و بعد أن قهروا جميع الطوائف بتلك البلاد الخوارزمية ، و القنجان و الكرج ، و اللان ، و الخزر ، و غيرهم . قتلوا من المسلمين و غيرهم في تلك البلاد كبار ما لا يحصى و لا يوصف . فلم يدخلوا بلدا الا و قد قتلوا جميع من فيه من المقاتلة و الرجال ، الى جانب كثير من الاطفال و النساء . و أتلفوا ما فيه بالنهب ان احتاجوا اليه و بالحرق ان لم يحتاجوا اليه . حتى احرقوا الحبر الذي عجزوا عن حمله ، فيطلقون فيه النار ، و هم ينظرون اليه و قاموا بتخريب المنازل ، و ما لم يستطيعوا تخريبه احرقوه بالنار و أحرقوا كثيرا من المساجد و الجوامع . و قد كانوا يأخذون الاسارى من المسلمين فيقاتلون بهم ، فان لم ينصحوا في القتال قتلوهم و يرى ابن الاثير أن فتنة التار من اعظم الحوادث التاريخية الهامة حتى لو قال قائل ان العالم منذ خلق الله آدم و الى الان ، لم يبتلوا بمثلها لكان صادقا ، فان التواريخ لم تتضمن ما يقاربها ، و لا يدانيها ، و من اعظم ما يذكر من الحوادث ، ما فعل بخت نصر بنى اسرائيل من القتل و تخريب بيت المقدس و ما البيت المقدس بالنسبة لما قتلوا ، فان أهل مدينه واحدة ممن قتلوا اكثر من بنى اسرائيل و لعل الخلائق لا يرون من هذه الحادثة الى أن يتقرض العالم . ٢٣

و في سنة ٦١٨ هـ استولت التار على كثير من البلدان حتى اقتربوا من بغداد و انزعج الخليفة لذلك . كان هذا من ناحية شرق العالم الاسلامي . أما من ناحية الغرب ، فقد قام المعظم عيسى بالمصالحة بين اخويه : الأشرف موسى ، و الكامل محمد حيث كان بينهما شيء من الضغينة فزألها . و سارا

جميعا ، نحو الديار المصرية . لمعاونة الكامل على الفرج الذين أخذوا ثغر دمياط
و استحكم أمرهم هناك من سنة اربع عشرة ، و عرش عليهم في بعض الاوقات
أن يردوا اليهم بيت المقدس و جميع ما كان صلاح الدين فتحه من بلاد
الساحل ، و يتركوا دمياط ، فاستعوا من ذلك و لم يفعلوا ، فقدر الله تعالى
انهم ضاقت عليهم الاقوات فقدم عليهم مراكب فيها ميرة ، فاخذها الاسطول
البحرى ، و ارسلت المياه على اراضي دمياط من كل ناحية فلم يمكنهم بعد
ذلك أن يتصرفوا في أنفسهم ، و حضرهم المسلمون من الجهة الاخرى حتى
اضطروهم الى اضيق الاماكن ، فعند ذلك أتايوا الى المصالحة بلا
معاوضة ، فجاه مقدسهم اليه ، و عنده اخواه : المعظم عيسى و موسى
الاشرف . و كانا قائمين بين يديه ، و كان يوما مشهودا فوقع الصلح على ما
اراد الكامل . . . و قام راجح الحلبي الشاعر فأنشد :

هنيئا فان الصعد راح مخلدا	وقد انجز الرحمن بالنصر موعدا
حيانا اله الخلق فتحا بدا لنا	سينا و انعاما و عزا مؤيدا
تهلل وجه الارض بعد قطوبه	و أصبح وجه الشرك بالظلم اسودا
ولما طغى البحر الخضم باهله الط	سفاة واذجى بالمراكب مزيدا
أقام لهذا الدين من سل عزمه	صتيلا كما سل الحسام مجردا
ونادى لسان الكون في الارض رافعا	عقيرته في الخافقين و منشدا
اعباد عيسى ، ان عيسى و حزبه	و موسى جميعا يخدمون محمدا

قال أبو شامة : و بلغني أنه أشار عند ذلك الى المعظم عيسى و الاشرف

موسى و الكامل محمد . قال و هذا من احسن شيء اتفق . ٢٤

وفي هذا العصر المئتي بالفلاقل ، و الهجمات على الاقطار الاسلاميه شرقا و غربا ، عاش الشيخ نجم الدين الرازي ، و في تلك الفترة المحزنه قام بتأليف كتابه (مرصاد العباد) و قد أثر كل ذلك في نفسيته . حيث نراه يعرض الملوك و عامه المسلمين على الجهاد و تحرير العالم الاسلامي حيننا ، و يأسف أحيانا على غفله المسلمين ، و غياعهم الشعور و الاحساس بالخسران ، و سرى اثار هذا الحزن الدفين في نفسه في الصفحات التاليه انشاء الله . و في سنة ٦٥٦ هـ بعد وفاة نجم الرازي دخل التتار في قيادة هولاءكو خان بغداد و قتلوا اكثر أهلها ، و قتلوا الخليفه العباسي عبد الله المستعصم بالله الى جانب كثير من أهل بغداد ، و بذلك قضوا على الخلافة العباسيه^{٢٥} و في سنة ٦٥٨ أخذ التتار دمشق ، و بعد القتل و ابادة ما فيها ، إتجهوا الى مصر ، حتى التقت بهم جيوش الملك المظفر صاحب مصر في عين جالوت ، فانتصر جيش المسلمين ، و ذلك يوم الجمعة الخامس و العشرين من رمضان ، و قتل أمير المغول كتبغا توين ، و جماعه من بيته و اتبع الاسير بيبرس النيدقاري و جماعه من الشجمان ، التتار يقتلونهم في كل مكان الى أن وصلوا خلفهم الى حلب^{٢٦} .

و في سنة ٦٦٣ هـ مات هولاءكو يمرض الصرع بمدينةه مراغه و في هذه السنه اسلم بركه خان بن تولى بن جنكيز خان ، و كان من سحبي العلماء .^{٢٧} و في سنة ٦٧٨ هـ وقع خلاف بين التتار فقتل بعضهم بعضا . و هكذا بدأت هذه البليه في التراجع و الانكماش الى أن قضت عليها الحصاره الاسلاميه .

٢٥) نفس المصدر ص ٢٠٠ .

٢٦) نفس المصدر ص ٢٢١ .

٢٧) نفس المصدر ص ٢٤٩ .